الكجوجة

الكجوجة

حليمة خميس الدوار

قصة لليافعين

Qindeel | قنديل

Al-Kajujah

Halima Khamies Al-Dawar

الكجوجة

حليمة خميس الدوار

© 2017 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: 2675462-01 -MC-02 تاريخ 2017/10/6

ISBN: 978 - 9948 - 23 - 909 - 3

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع الحقوق محفوظة للناشر 2017

الطبعة الأولى: تشرين الثاني / نوفمبر 2017 م – 1439 هـ

أُنجزت هذه القصة في مسابقة قصتي بالتعاون بين

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

ووزارة التربية والتعليم

في دولة الإمارات العربية المتحدة

الإهداء

إلى روح رحلت دون أن اكتفي منها

أمي غنيمة الكياني

مسابقة قصتي

انطلقت مبادرة «قصتي» بالتعاون بين مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة ووزارة التربية والتعليم، في طرح مسابقة للقصة القصيرة على مستوى مدارس الدولة، تتمحور في موضوعاتها على (التراث الإماراتي.. مكنوناته ومكوناته).

وبإعلان شارة البدء بالمسابقة شمّر كل المعنيين بها عن ساعد الجد، من معلمين وطلاب، وأظهروا اجتهاداً منقطع النظير في تلك المنافسة العلمية المعرفية الراقية، في إبراز نتاج تلك الأقلام الواعدة السيالة، التي أثمر عنها قصص متفاوتة في القوة متفقة في الجهد المبذول من أصحابها، الذين فازوا جميعاً بشرف المشاركة والمحاولة، وإن كانت درجات لجان التحكيم قد حددت الفائزين الأوائل فيها.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، إذ تنشر القصص الفائزة بالمراتب الأولى في مسابقة «قصتي»،

فإنهـا تنطلـق فـي ذلـك مـن مبـدأ المسـؤولية التـي تشـرَّفت بوضعهـا علـى عاتقهـا، مـن نشـر المعرفـة وإبـراز إبداعـات العقـول الناشـئة لوضعهـم فـي بدايـة طريـق الإبـداع؛ لشـق طريقهـم ليكونـوا مـن الأقـلام المشـار إليهـا بالبنـان، وهـذا مـا تسـعى إليـه المؤسسـة جاهـدة فـي جميـع مبادراتهـا؛ بـدءاً مـن «برنامـج دبـي الدولـي للكتابـة» وليـس انتهـاء بمسـابقة «قصتـي»، وبذلـك فإننـا نـؤدي الأمانـة التـي حمَّلتنـا إياهـا قيادتنـا الرشـيدة فـي جعـل العلـم والمعرفـة علـى قائمـة مرتكزاتنـا فـي مشـروعاتنا ومبادراتنـا، لإيجـاد منافسـات إيجابيـة تثمـر نتاجـات تغيِّـر النظـرةَ النمطيـةَ للحصـص المدرسـية التـي لطالمـا وصفـت بالجمـود، ولتحـرك همـم المعلميـن والطـلاب آخذيـن زمـام المبـادرة فـي إثراء السـاحة التعليميـة بمـا هـو مميـز ونافـع.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

عندما تحنُّ أنفسنا لزمن معين وتتوق أرواحنا إليه فإننا نتمسك بكل ما يربطنا به ويجعلنا نعيش ذكرياته بكل تفاصيلها.

«كفاك الرب..كش، كش مناك».

جملة تقولها جدتي كلما سمعت نعيق الغربان، التي تنتشر بكثرة في مثل هذه الفترة من كل عام؛ مقتحمةً أشجار النخيل، محدثةً جَلَبةً اعتدنا عليها كلما اشتد الجو حرارة، وازداد القيظ لهيباً، معتقدةً أنها بهذه الكلمةِ تطرد الفأل السيئ الذي يأتي في نظرها مصاحباً لهذا الأسود المشؤوم.

أتَّجهُ ببصري حيثُ أشجار النخيل، متمدداً بكسل قرب جدتي، أتوسَّدُ كفيَّ المشبوكتين تحت رأسي، أنتظرُ قطرة العرق لكي تنحدر بهدوء من جبيني

وتسيل متململة حتى أذني، لا أشعر برغبة في مسحها؛ فقد بلغ بي الملل مبلغاً جعلني أتكاسل عن مد يدي لمسحها، وبعد أن تصل أرفع يديَّ اللتين أصابهما الخدر من تحت رأسي وأمسحها، ثم أطوي متأففاً كُمَّ قميصي إلى الأعلى، لعلي بهذه الحركة أخفف وطأة الحر، وأرفع غرة شعري التي التصقت على جبيني إلى الوراء كي لا تغرق بأكملها في عرق جبيني.

حر، نار، قيظ، لهيب...

أنقلب على بطني على تلك الحصيرة البالية، المنسوجة من سعف النخيل، أبحث عن شيء حولي يبدد الجمود، ويذيب الجلمود؛ يكسر الملل، ويزيل الكسل؛ فتقع عيناي على التجاعيد في يدَي جدتي؛ أراقب خطوط الزمن على يديها الرشيقتين وهي تمسك بكرات الخيوط الملونة. لا أذكر أني قد رأيت أطراف أناملها بلونها الطبيعي؛ فهي دائماً مخضبة بشكل دائري يميز الأطراف عن باقي الإصبع.

بحركة خفيفة تشبه الحركات البهلوانية تمسك بست كرات من الخيوط الملونة، تتكئ على وسادة بيضاوية ترتكز على قاعدة بشكل قمع أسطواني معدني، تطلق عليه جدتي اسم كجوجة[1].

وبحركة آلية سريعة؛ تحرك بكرات الخيوط الملونة بالتناوب إلى الأمام وإلى الوراء بدقة ومهارة، وكأنها تحفظ الحركات عن ظهر قلب، لتشكل بحركاتها تلك شريطاً مزركشاً بألوان جذابة.

«يدوه».

«عونك يا الغالي».

أبتسم ابتسامة المزهو بنفسه، متناسياً سبب مناداتي لها.

أعتدل في جلستي واضعاً كفي في حجري لأسألها سؤالاً أتى وليد اللحظة.

(1) الكجوجة: هي الأداة التي يُصنع بواسطتها (التلي) وهو ما تطرز به ملابس النساء.

«يدوه، اسمي عليّ، لماذا تنادينني الغالي؟».

تصمت برهة، تَسْرَحُ بنظرها إلى الفضاء، تعود بفكرها إلى عالم غير عالمنا، وزمان غير زماننا.

تطلق تنهيدة تعود بها إلى أرض الواقع، تعود بها إليّ لتقول لي:

«لأنك سميُّ الغالي».

«يدي علي كان وايد غالي؟».

أرمي بسؤالي هذا، كحيلة أحتال بها على جدتي؛ لأسبر أغوارها الخبيئة خلف برقعها.

فتبدأ تدندن وهي مستمرة في تحريك بكراتها الملونة:

«يا أمي.. يا أمي.. يا اماية

راعي البحر ما اباه..

أبى وليد وليد عمي..

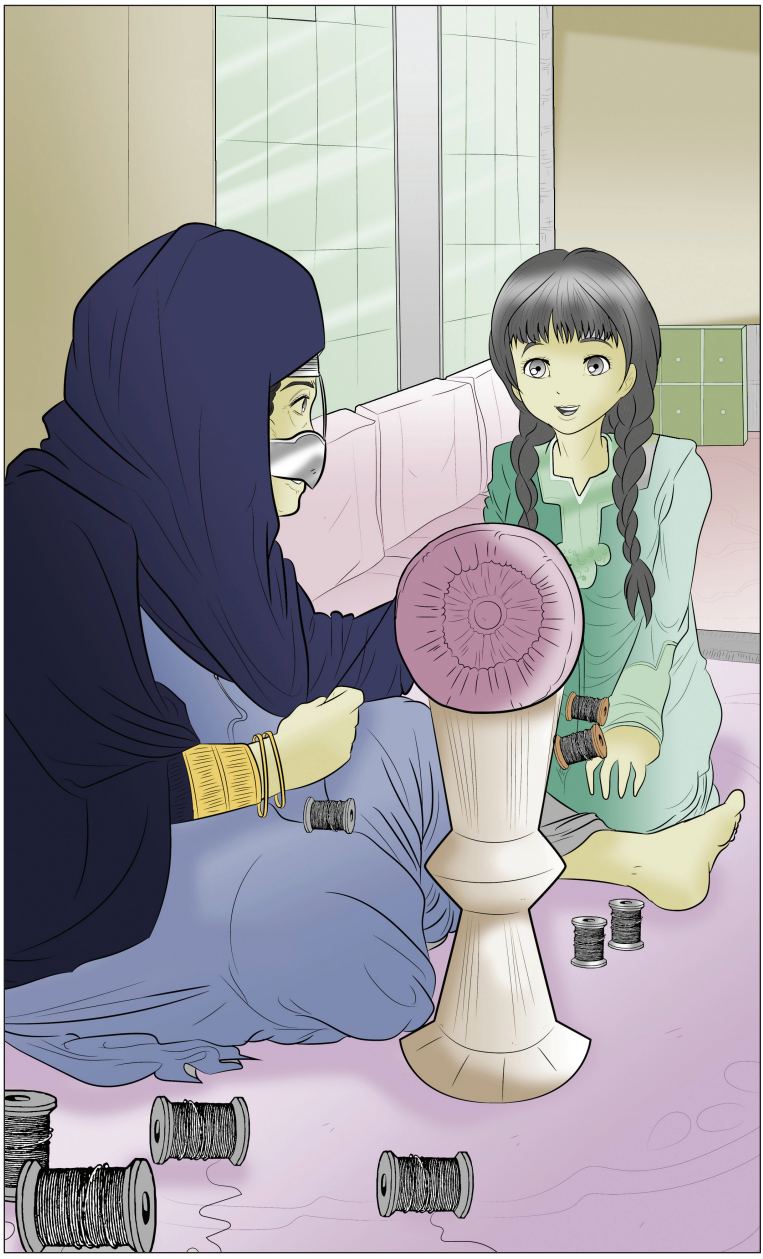

بخنجره ورداه»..

ثم تكمل لي حكايتها قائلة:

لـن أنسـى مـا حييـت نظـرة الفـرح فـي عينـي جدتـي، عندمـا جـاءت تـزف لـي خبـر خطبـة ابـن عمـي علـيّ لـي؛ فقـد توفيـت أمـي بعـد ولادتـي؛ أصابتهـا حمـى النفـاس فـي الأسـبوع الـذي يلـي ولادتـي، ولـم تسـتطع أن تصمـد أمـام قسـوة الظـروف فـي تلـك الفتـرة؛ فقـد كانـت البـلاد تمـر بـ(سـنة الجوع)، حيـث أنهـك الحرمان الأنفـس، وطُبعـت الحسـرةُ علـى قلـوب النـاس.

توقـف المطـر ثـلاث سـنوات عجـاف؛ جـفَّ خلالها الـزرع، ونفقـت البهائـم التـي كانـت مصـدرَ المعيشـة ويعتمـد عليهـا السـكان فـي عيشـهم، قـلَّ الـزاد، وانعدم المـاء، وانتشـرت الأمـراض، وانعـدم الـدواء؛ لذلـك لـم تسـتطع أمـي أن تصمـد، ولـم تقـوَ علـى المقاومـة، فسـلَّمَتْ روحهـا إلـى بارئهـا، وسـلمتني إلـى والدتهـا.

نشـأتُ عنـد جدتـي التـي اضطـرت لأن تضعنـي عنـد النسـاء المرضعـات فـي الحـي، حتـى انتهـت سـنة

الجوع بهطول الأمطار لأيام متواصلة؛ سالت بعدها الوديان، وامتلأت الآبار، ونبت الزرع، وعمَّ الخير.

ترعرعتُ في كنفي جدي وجدتي؛ كان جدي يعمل بيداراً[1] في إحدى مزارع النخيل؛ يقوم بالاعتناء بالثور الذي يستخدمونه في اليازرة[2] لكي يجلبوا بواسطتها الماء من الآبار، ويسقوا به النخل عبر الأفلاج.

وفي أحد تلك الأيام، طرقت بنات الحي باب منزلنا، لاصطحابي معهن للعب في الحارة القديمة، لكنَّ جدتي سبقتني إليهن؛ أعطت كل واحدة منهن تمرة وحمّلتهن السلام إلى أهاليهن، وصرفتهن بحجة أنني مشغولة. وبعد أن انصرفن، أحضرت لي «كجوجة» وطلبت مني أن أجلس أمامها، وجلسَتْ هي بقربي، وأسرَّت لي في أذني بأنها تخشى دنوَّ أجلها هي وجدي، وتخشى عليَّ من بعدهما نوائبَ الدهر. لذلك قررت تعليمي كيف «أخدم تلي».

(1) بيدار: المزارع.

(2) اليازرة: تعد اليازرة من أهم الوسائل المستخدمة في ري المحاصيل الزراعية قديماً، وهي هندسة إماراتية ابتكرها الأجداد للحصول على الماء العذب من باطن الأرض.

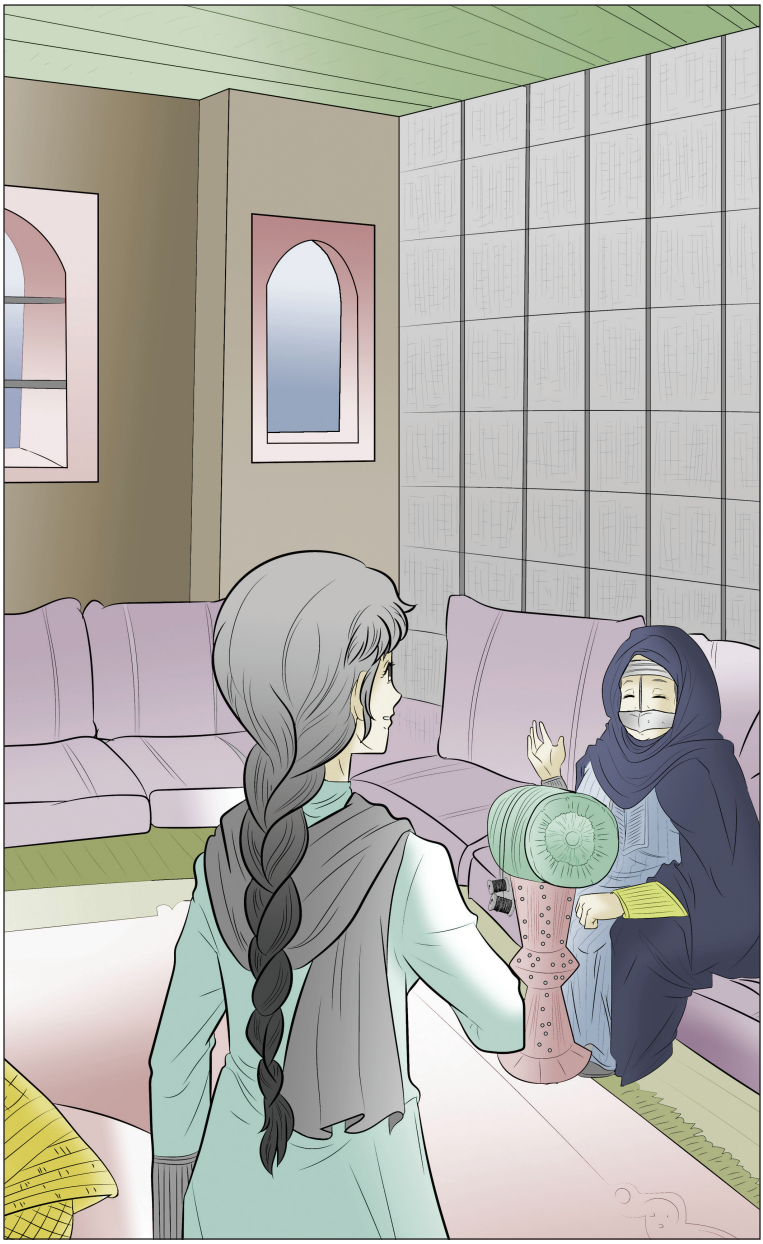

نزلَت دمعةٌ من عيني كانت واقفة على جفني أثناء حديث جدتي، وما إن أنهت حديثها حتى سالت لتأخذ مجراها على وجنتي، وكأن قلب جدتي يتنبأ بخطبٍ ما سيحدث، فبعدها بأسبوع، أصيب جدي إصابة بليغة في بطنه من جراء نطح الثور له أثناء اليازرة التي كانت مصدر رزق وعيش له، وكان صوتها عنوانَ طرب وترفيه بالنسبة له.

اليازرة غدت هي القاضية.

أربعة أشهر وعشرة أيام لم تر خلالها جدتي بابَ المنزل من الخارج؛ لبسَت فيها ملابس بيضاء، اختفت المرآة الدائرية الوحيدة في منزلنا، تجنبت جدتي الخروج مساءً، وإن فعلت طأطأت بنظرها إلى الأسفل كي لا ترى القمر؛ هجرت العطر والطِّيب الذي كان لا يفارقها، و«المخمرية» التي كانت لا تفارق شعرها. علمتني خلالها الطبخ وأشياء كثيرة، وأكثر ما ركَّزت عليه هو تعليمي استخدام «التلي» حتى أتقَنتُ أنواعاً مختلفة منه.

لم يعد لجدتي حيويتها ونشاطها السابقان، شيء كُسر بداخلها؛ أرهقها، أثقل حركتها، شلَّ ابتسامتها.

آثـرَتْ بعدَهـا الصمـت، أصبحـت بطيئـة الحركـة، وأنـا أصبحـت كثيـرة المسـؤولية؛ أسـاعد جدتـي فـي كل شـيء، وفـي أوقـات الفـراغ أكمـل مـا بـدأت مـن حياكـة «التلـي». حتـى ذاع صيتنـا أنـا وجدتـي بيـن نسـاء الحـي بعمـل أفضـل «البـادلات» وأصبحنـا نبيـع «وار التلـي» بريـال، وهـذا كان كفيـلاً بـأن يلبـي الكثيـر مـن احتياجاتنـا.

أصبـح مـزاج جدتـي سـوداوياً .. ودندنتهـا مع نفسـها مأساوية:

إن مت أنا دفنوني.. تحت عويد الياس

بشوف من يبكيني. يبكني الحرمات

وصيت مرت أبوي.. وتعذرت ما يات

ينَي بنات عمي.. من بعد عانيات

حتـى جـاء اليـوم الـذي رأيتهـا فيه سـعيدة، مستبشـرة، يتراقـص قلبهـا طربـاً. وذلـك بعـد زيـارة ابن عمـي علي. علمـت بعـد مغادرتـه أنـه جـاء يطلـب يـدي. طـارت

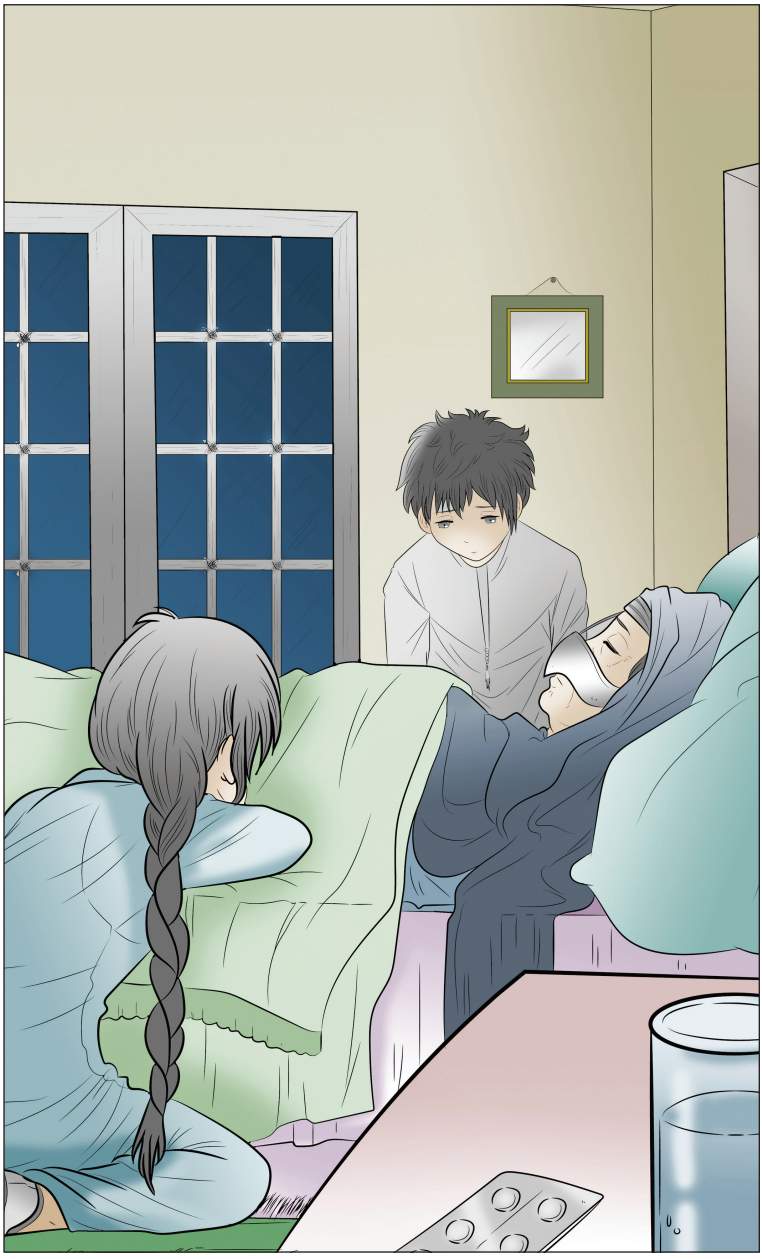

جدتـي فرحـاً، واحمـرت وجنتـاي خجـلاً؛ جريـت إلـى غرفتهـا، أخرجـت المـرآة الدائريـة التـي كانـت مخبـأة؛ فتحـتُ شـعري وبـدأتُ أسـرحه.

يا امي.. يا امي.. يا اماية

راعي البحر ما أباه

أبي وليد عمي

بخنجره ورداه

عـادت لجدتـي روحهـا ونشـاطها المعتـاد، قضـت ليلهـا ونهارهـا تحيـك لـي الكنادير والخلقان مسـتخدمة خيـوط «التلـي».

بعـد أسـبوعين تـم زفافـي إلـى ابـن عمـي؛ إلـى مـن أعـاد إلـيَّ الحيـاة، إلـى رفيـق أتحـدث معـه وأتسـامر معـه، بعـد أن كانـت الحيـاة فـي بيـت جدتـي شـبه صامتـة، رماديـة، لا طعـم لهـا ولا لـون، ولـم أكـن قـد بـدأت أحمـل هـم جدتـي بدونـي .. لأنـي اعتمـدت علـى عـودة الـروح إليهـا أثنـاء اسـتعدادنا لزفافـي؛ فقـد

كانت جاراتنا لا يكدن يخرجن من عندها. وبعد مرور أسبوع على زواجي ذهبت (أخطر)[1] في بيت جدتي، دخلت مهرولة إلى غرفتها، وتوقفت بحركة مفاجئة عند باب غرفتها؛ هالني ما رأيت، أذهلني ما وجدت، وجدت جدتي تقبع خلف الكجوجة و«تخدم تلي» وبقربها الكثير من لفائف «التلي» الجاهزة ذات الألوان الجذابة. نظرت مندهشة، مشيت تجاهها، نزلت على ركبتي قربها، سألتها: كيف استطاعت إنهاء كل هذه «البادلات» خلال أسبوع؟ لم تجب عن سؤالي، بل أجابت عن سؤال آخر في عقلها الباطن؛ أجابت بأن كل هذه «البادلات» لي؛ فهي يجب أن تخلِّف لي شيئاً ينفعني.

تسللت دمعة من عيني وسَقَطَتْ بعد أن احتضنتها ورأيت دمعتها تقاوم النزول. كان يبدو من خلال ضوء الفنر أن جدتي لم تكن تنام لا ليلاً ولا نهاراً. أصبحت دنياها بعدي فارغة، خالية؛ فهي ما كادت تشفى من فقدان ابنتها مخلفة لها بنتاً صغيرة،

(1) أخطر: الخطرة هي الزيارة، وأخطر: أزور، والخطرة هي عادة قديمة حين تزور العروس بيت أهلها بعد أسبوع من الزواج.

حتى توفي زوجها ومعيلها وسندها في الحياة، ثم بزواجي زادت دائرة الفقد لديها، وزاد الفراغ داخلها.

قررت أن أقضي تلك الليلة معها. كعادتنا هي على «الشبرية» وأنا أفترش «الدوشك» على الأرض. سمعتها تهمس باسمي:

«عونج يدوه

باجر يوم بتروحي.. خذي معاج الكجوجة والدحاري والتلي انزين

حتى انتي يدوه بتروحي معاي

أنا عقب أمج ويدج مالي طلعه من هالبيت الا صوبهم

الصبح بنتفاهم..تصبحي على خير

طفي الفنر».

أطفأته، فانطفأ النور من الغرفة، وانطفأ النور من حياتي إلى الأبد.

خـلال فتـرة العـزاء لم يـأْلُ زوجـي جُهـداً فـي تعزيتي والتسـلية عنـي. واسـتطاع أن يخرجنـي مـن الإحسـاس بالفقـد، ومـن الشـعور بالحـزن، ويعوضنـي عـن اليتـم الـذي ولـدت بـه؛ مـلأ حياتـي حيـاة، تغيـر فيهـا كل شـيء؛ أصبـح هـو الـزوجَ والأخَ والصديـقَ والعائلـة.

عشـنا فـي سـعادة وهنـاء فتـرة لا بـأس بهـا مـن الزمـن، ولـم يكـن ينغـص علينـا شـيء سـوى أن الأرض بـدأت تشـح علينـا.

وقـد ظهـر هـذا الشـح فـي ذلـك اليـوم الـذي دخـل علـيَّ (علـيٌّ) والمزمـاة [1] فارغـة؛ نظـرت إليـه متسـائلة عـن الحـدال الـذي تتـوق إليـه نفسـي هـذه الأيـام؛ فقـد أصبحـت نفسـي تشـتهي أكل كل شـيء حامـض، وجسـدي منهـك طـوال الوقـت، وأصابنـي إحسـاس بالثقـل لـم أعـرف سـببه إلا بعـد ذلـك بعـدة أشـهر.

«الدبا ما خلى علينا شيء».

«الجراد؟».

(1) المزماة: وعاء مصنوع من السعف لجمع البلح أو الرطب.

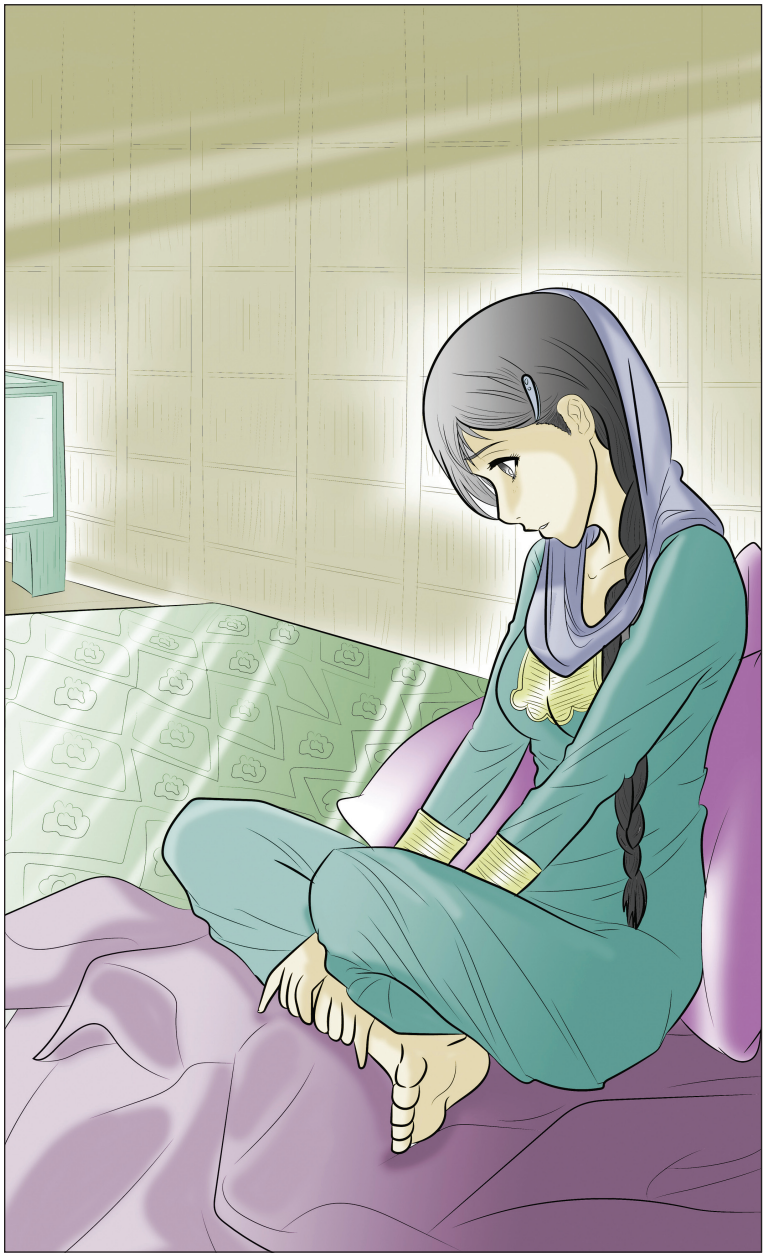

تساءلت مستغربة، فنحن مجتمع اعتاد توافد الجراد في مواسم معينة من كل عام؛ نصطادها، نتلذذ بأكلها، ولم يكن يضرنا منها شيء. لكن ما تكلم عنه هو صغار الجراد التي أخذت تزحف بأعداد هائلة حتى سميت تلك السنة بسنة الدبا. فقد أكل الدبا الأخضر واليابس، وتساقط في العيون والآبار، وأفسد المياه العذبة؛ فتفشى القحط، وانتشر الجوع، ولم يجد الكثير من الأهالي بداً من الهجرة إلى الدول الخليجية المجاورة بحثاً عن الرزق وسعياً وراء لقمة العيش، وقرر علي أن يحذو حذوهم. وسميت تلك السنة بسنة (اليلوه) «الجلوة» حيث جلا (غادر) فيها الكثيرون من أهلي البلاد، تاركين خلفهم عيوناً دامعة، وقلوباً منفطرة، ونفوساً متحسرة.

وتحركت البذرة بداخلي، وكبرت، فسعدت بها كثيراً؛ كبر حزني على رحيله، كبر حجم وحدتي بعد رحيله؛ تذكرت كنز جدتي؛ أخرجت شرائط «التلي» وصرت أبيعها وأقضي بها حاجتنا، ثم أخرجت «الكجوجة» وبدأت أحيك المزيد.

ومـع ولادة ابنـي وُلـد فجـر جديـد فـي البـلاد؛ ظهـر البتـرول، ونـادى الشـيخ زايـد أبنـاءه المهاجريـن بالعـودة؛ فقـد ازدهـرت البـلاد، وتطـور العبـاد؛ شُـيد العمـران، وارتفـع البنيـان.

وبـدأت الطيـور المهاجـرة بالعـودة إلـى أعشاشـها، وعـادت السـعادة بعودتهـا إلـى أهلهـا سـالمة غانمـة؛ أمـا علـي فلـم يكـن بينهـم؛ انتظرتـه، انتظرنـاه، لكنـه لـم يعـد..

أتـراه لـم يسـمع بالخبـر؟! أتـراه غـادر أو رحـل؟! لِـمَ لـم يعـد مـن السـفر؟! أتـراه خـان أو غـدر؟! ونسـي عشـرة العمـر؟! أم قلَّبتـه نوائـب الدهـر؟! وذاق مثلنـا عـذاب السـفر؟

إلهـي، مالـي سـواك أشـكو المـر، والعاقبـة لمـن شـكر وصبـر.

* * *

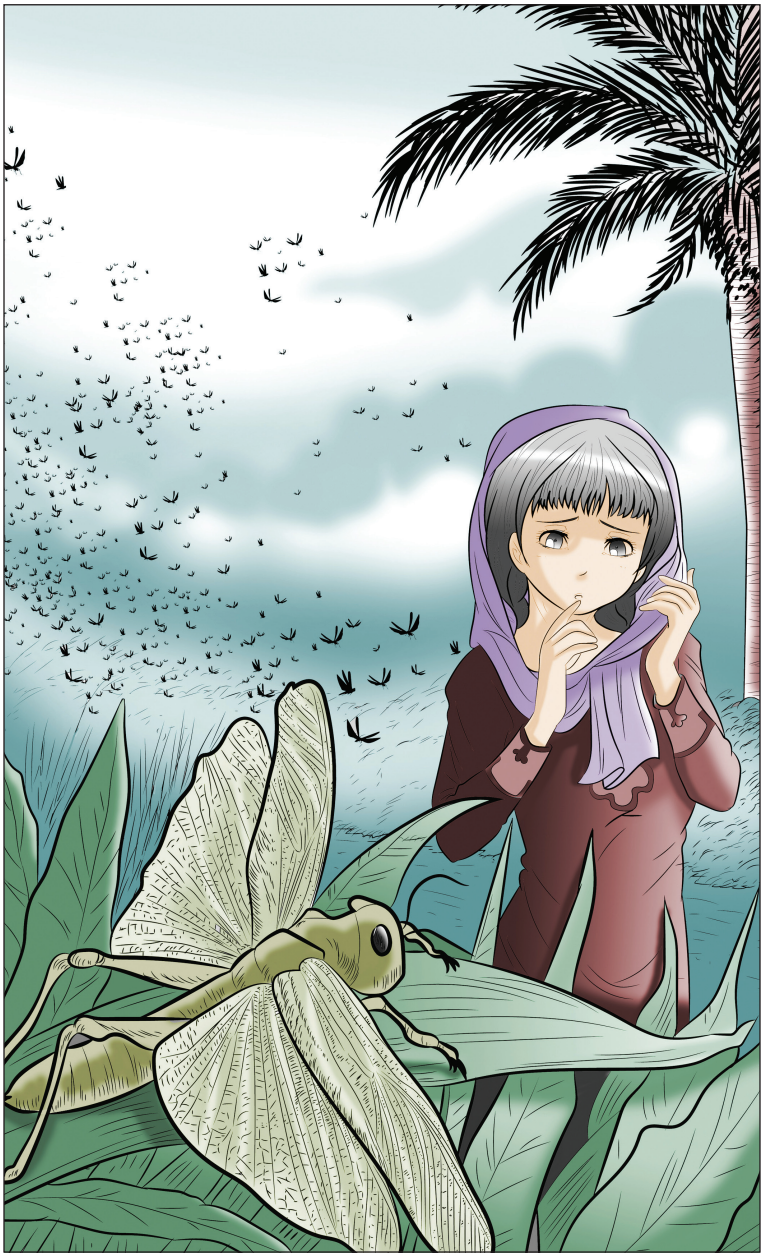

أخـذت جدتـي نفسـاً عميقـاً وكأنهـا تجتـر كل الذكريـات؛ ذكريـات الماضـي المنصرمـة، والنفـس المنهزمـة، ثـم أطلقـت زفيـراً هادئـاً كهـدوء روحهـا، لتعـود بعدهـا إلـى أرض الواقـع؛ التفتـت ناحيتـي، مـدت يدهـا، ومسـحت قطـرة عـرق أخـرى نزلـت علـى جبينـي، وأشـارت إلـيَّ أن أدخـل المنـزل تحـت جهـاز التكييـف، فأجبتهـا بأننـي أحـب الجلـوس معهـا تحـت العريـش الـذي أعـدَّه لهـا والـدي.

ثـم عـادت بنظرهـا، وتفكيرهـا، وروحهـا، إلـى «الكجوجـة»، وأكملـت مـا بدأتـه منـذ سـنين.